المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

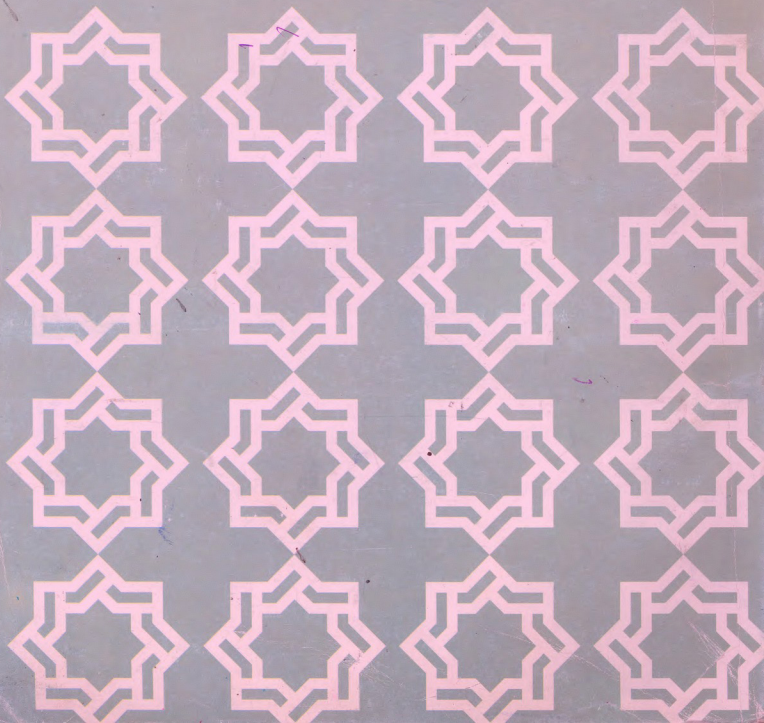

اصالة نظرية الأحلام عند الكندي
وموقعها في آراء المحدثين

بقلم الدكتور
ضياء الدين ابو الحب
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الفيلسوف المتبحر :

لقد كان الفيلسوف ابو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي هدية الفكر العربي المحض الى العالم الاسلامي والى الفكر العالمي حمل مشعل الثقافة الحية والهداية والنور كقبس من اقباس التفكير اليوناني الاصيل مرة وكشعلة اسلامية هادية الى الاجيال الصاعدة ما بين المشرق الى المغرب مرة اخرى . حتى انار بفيض علومه الواسعة ومبتدعات فكره الثاقب الافاق المعتمة التي تحيط بالعالم الاسلامي من كل مكان . وقد كان متضلعا في العلوم التي خلفتها الاجيال التي سبقت عمره وهو في ابان القرن التاسع الميلادي كما كان بحرا زاخرا بكل ما استحدث من آراء فلسفية قبل ايامه التي عاشها وكان يعتبر موسوعيا في جمعه العلوم(١) والمامه باطراف المعارف الانسانية (وقد ترجم من كتب الفلسفة الكثير واوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص) كما يقول ابن جلجل في كتاب طبقات الاطباء وهو الى جانب ذلك كما يقول هذا المؤلف نفسه كان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الاعداد والهيئة وعلم النجوم(٢) .

مصادره الفلسفية :

وقد كان الفيلسوف الكندي اصيلا في كثير من معارفه وافكاره فمن ذلك مثلا ان الكندي الف في الايقاع الموسيقي قبل ان تعرف اوروبا الايقاع بعدة قرون(٣) وله من صائب فكره وثاقب نظراته الى الحياة والكون والنفس اراء تعد بحق ذات اصالة وطابع خاص به وهي التي يمكن مفاضلتها بتلك النظريات التي تأثر بها سائر الفلاسفة الاسلاميين واستمدوها اما من الفلسفة اليونانية القديمة كما في افلاطون وارسطو وبتأثرهم بالفلسفة اليونانية المحدثة كنظرية الفيض كما جاءت في الافلاطونية الحديثة التي اعتقدت ان الله واحد وعقل محض ولا يمكن ان يصدر عنه الا عقل واحد وصدور هذا العقل شبيه بصدور الشعاع عن الشمس وعن العقل صدر العقل الثاني وهكذا الى العاشر والذي هو « العقل الفعال » الذي صدرت عنه المادة وهو ادنى العقول العشرة وهو المشرف على العالم الارضي وحلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة ويعتبر العقل الانساني عقلا منفعلا اي مستعدا لتقبل اي نوع من الكمال ليصبح اهلا للاتصال بالعقل الفعال وذلك بالتأمل والدرس وتزكية النفس(٤) ولذلك فقد عرف الكندي النفس بقوله انها تمامية جرم طبيعي

---

(١) انظر كتاب : الدوميلي الايطالي العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى نشرته دار القلم ١٩٦٢ ص ١٤٩ .

(٢) الدكتور احمد فؤاد الاهواني الفلسفة الاسلامية ضمن سلسلة المكتبة الثقافية مصر رقم ٦٩ ص٦٤ .

(٣) انظر كتاب : اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوربية للدكتور فروخ من منشورات مكتبة منيمنة بيروت سنة ١٩٥٢ ص١١ .

(٤) انظر كتاب شخصيات ومذاهب فلسفية للدكتور عثمان امين دار احياء الكتب سنة ١٩٤٥ ص٤٦ .

ذي آلة قابلة للحياة(٥) كما قال عنها : انها عاقلة بالفعل عند اتحاد الانواع بها وقبل اتحادها بها كانت عاقلة بالقوة(٦) ويقصد بالالة وبالانواع جسم الانسان وحواسه .

رسالته في ماهية النوم والرؤيا :

ولعل خير ما تجسمت فيها اراؤه الاصيلة الشاقبة عن علاقة النفس بالجسد وبالعالم رسالته الموسومة بـ (ماهية النوم والرؤيا) والتي اشار اليها كل من ابن النديم في كتابه الفهرست (ص ٢١٢) وابن ابي اصيبعة في كتابه (عيون الانباء في طبقات الاطباء) (ج١ ، ص٢١٢) .

وقد ترجمها الى اللغة اللاتينية (جيراردو دي كريمونا Geherardo Di Cremona ضمن رسائل اخرى له بين عامي (١١٦٧ ــ ١١٨٧م) . وقد اثرت تاثيرا عظيما في الشعوب اللاتينية والثقافات التي نشأت عنها فيما بعد . وقد نشرت له هذه الرسالة مع رسائل اخرى في نصها اللاتيني مع تعليقات قام بها (البيناناجي Albina Nagi) في مونتر Munstar بالمانيا سنة ١٨٩٧م(٧) .

وقد اشار الاستاذ محمد عبدالهادي ابو ريدة في تعليقه على رسالة ماهية النوم والرؤيا الى مايقوله (ناجي) في تحليله لهذه الرسالة عند نشرها باللغة اللاتينية معززا رايه برأي باحث محقق اخر من ان هذه الرسالة تعتبر مخالفة لاراء ارسطو في النوم والرؤيا اختلافا عظيما او قد يكون الكندي قد استمد افكاره فيها من مؤلفين اخرين كجالينوس او اتباع مذهب الافلاطونية الجديدة او غيرهم على ان ناجي يعتقد ان الحكم الذي اصدره المفكر والباحث اوريو Haurieau يمكن ان يعتبر خير حكم على ما جاء من آراء اصيلة في هذه الرسالة وذلك يقول هذا المحقق « اما كتاب في النوم والرؤيا فهو ليس بترجمة لرسالة ارسطو التي عنوانها في النوم واليقظة بل هو كتاب مبتكر للفيلسوف العربي »(٨) .

تاثر الفلاسفة الاوربيين به :

لقد كان من ذيوع افكار فيلسوفنا العربي في بلاد الغرب في النصوص اللاتينية التي ترجمت اليها اراؤه اثر بارز المعالم في نظريات الفلاسفة الذين جاؤامن بعده واطلعوا على بنات خواطره وخاصة في هذه الرسالة موضوع بحثنا وقد اشار ابو ريدة الى ان الاستاذ ناجي جامع رسائل الكندي باللغة اللاتينية نوه بشأن تأثير الكندي في كتاب اسمه (النوم واليقظة) للفيلسوف المشهور والمسمى (البرت الاكبر Albertus agnus) وهو احد فلاسفة القرون الوسطى الاوروبية ابان القرن الثالث عشر فقد ذكر (فرويد) في كتابه تفسير الاحلام اشارة الى عملية (النكوص) في الحلم اذ يقول ان المخيلة تبنى الاحلام في صور الموضوعات الحسية المدخرة وتتم هذه العملية في اتجاه هو عكسه في اليقظة(٩) وهذا هو شبيه بقول الكندي في رسالته عن النوم والرؤيا بقوله (ان هذه القوة المصورة انما هي مصورة الفكر الحسية فاي فكرة عرضت لنا عند تشاغلنا عن جميع الحواس تمثلت صورة تلك الفكرة لنا مجردة بغير طينة (اي بغير مادة او هيولى) فوجدنا في النوم من الصور الحسية ما ليس يجده الحس بتة(١٠) او قوله فان الفصل بين الحس (اي حالة اليقظة) وبين القوة المصورة (اي في حالة الرؤيا) ان الحس يوجدنا صور محسوساته محمولة من طينتها فاما هذه القوة فانها توجدنا الصور الشخصية مجردة بلا حوامل وقد تعمل هذه القوة اعمالها في حالة النوم واليقظة الا انها في النوم اظهر فعلا واقوى منها في اليقظة فقد نجد المستيقظ الذي نفسه مستعملة بعض حواسها تتمثل له صور الاشياء التي يفكر فيها بحسه(١١) ويبدو ان هذه الافكار التي اشاعها الكندي عن الاحلام اثرت في تفكير الفلاسفة الاوروبيين في اوائل عهد النهضة الاوروبية وليس غريبا ان يطلع اولئك الفلاسفة على اراء الكندي ما دامت مبثوثة في مكتباتهم في اصلها اللاتيني فهذا الفيلسوف الانكليزي هوبز Hobbes في كتابه اللوياثان Livianthan سنة ١٦٥١ يقول ما خلاصته ان احلامنا عكس اخيلتنا المستيقظة فالحركة تبدا ونحن ايقاظ من طرف وتبدا ــ حين نحلم ــ من طرف اخر(١٢) .

---

(٥) رسالة الكندي في حدود الاشياء ورسومها في كتاب رسائل الكندي الفلسفية جمع وتحقيق محمد عبدالهادي ابو ريده ص١٦٥ .

(٦) نفس الكتاب ص١٥٥ .

(٧) الدوميلي العلم عند العرب المذكور سابقا ص١٥٣ .

(٨) رسائل الكندي الفلسفية ص٢٩١ .

(٩) انظر كتاب تفسير الاحلام لفرويد ترجمة مصطفى صفوان دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ هامش الصفحة ٥٢٤ .

(١٠) رسائل الكندي ص٢٠٠ .

(١١) رسائل الكندي (ص٢٦٥ ــ ٢٦٦) .

(١٢) Ellis, Havalock. The world of dreams : Ellis, Havalock. The world of drams : London, 1911, p. 109.

اثر افكار الكندي عن الاحلام في آراء المحدثين :

ويبدو ان فرويد في كتابه (تفسير الاحلام) قد اورد نماذج طيبة عن تأكيد هذه الفكرة الاصيلة التي اوردها الكندي عن الاحلام اذ يذكر وصف شترومبل الصغير للاحلام في قوله (فنحن نغلق اهم ابواب الحس واعني العينين ونحاول ان نأى بسائر حواسنا عن كل تغيير في المنبهات الواقعة عليها وعندئذ نذوق النوم)(١٣) كما يذكر ان شترومبل يعتقد ان النفس اذ ينقطع نشاطها الحسي وينقطع شعورها السوى بالحياة تفقد التربة التي تتأصل فيها مشاعرها ورغباتها واهتماماتها واعمالها .. كما ان الصور الادراكية المحصلة في حياة اليقظة عن الاشياء والاشخاص والاماكن والاحداث والافعال تستحضر منفردات .. وهكذا تطوف هذه الصور في النفس كيفما يحلو لها(١٤) . وهذا شبيه تماما بالفكرة الاصلية عند الكندي عن الاحلام بقوله ان الرؤيا اذن هي استعمال النفس الفكر ورفع استعمال الحواس من جهتها فاما من الاثر نفسه فهي انطباع صور كل ما وقع عليه الفكر من ذي صورة في النفس بالقوة المصورة لترك النفس استعمال الحواس ولزومها استعمال الفكر(١٥) .

وهذا بنصه ما ذهب اليه فرويد في فهمه للاحلام بقوله (ان الحلم في جوهره ليس سوى صورة خاصة من صور التفكير صارت ممكنة بفعل شروط حالة النوم وعمل الحلم يخلق هذه الصورة وفيه وحده تقوم ماهية الحلم)(١٦) .

ويعتقد ادلر (A.Adler) ان ليست الاحلام مناقضة للحياة وان الحلم ليس سوى محاولة كل مشاكل الحياة وتكملة للجهاد العنيف الذي تبذله للوصول الى الغاية التي نتوق للوصول اليها من القوة والسمو . ويقول ان الفرق بين التفكير والنوم وتفكير اليقظة ليس فاصلا باتا ومع ان الحلم يبتر كثيرا من علاقات الفرد بالعالم الخارجي ويباعد بينه وبين الحقيقة الا انه لا يسير في ذلك اشواطا كبيرة(١٧) .

(١٣) تفسير الاحلام ص٦٦ .
(١٤) تفسير الاحلام ص١٦٨ .
(١٥) رسائل الكندي ص٢٠٠ .
(١٦) فرويد تفسير الاحلام هامش ص٥٠٢ .
(١٧) انظر كتاب علم النفس الفردي للدكتور اسحق رمزي دار المعارف بمصر ١٩٦١ ص١٢٧ .

الكندي يسبق في تطبيق الرمزية في الاحلام :

يعتقد الكندي ان الرمزية في الاحلام ناتجة عن عدم قبول حواس الانسان (اي شعوره) انباء النفس الحسي (اي اللاشعور في لغة التحليل النفسي اليوم) بالاشياء فانها حينئذ تحتال وتتلطف لاتخاذ الحي (اي الانسان) ما ارادت اتخاذه بالرمز . ومن هذا يتجلى لنا ان الكندي كان سابقا الى ادراك عمل قوة خفية في النفس لاخبار الانسان الواعي بما تريده بطريقة الرمز وقد كان فرويد قد اشار في مؤلفاته الى ان الرمزية تنسب في العصر الحديث الى الفيلسوف (شرنر Scherner) سنة ١٨٦١ وقد جاء التحليل النفسي وعزز هذا الكشف(١٨) ولم يذكر لنا من هو الواضع الاصلي للرمزية في الاحلام وقد يكون الكندي اول من لاحظ ذلك وربط بين النفس الواعية والنفس غير الواعية اي اللاشعور والتي اطلق عليها اسم (اشخاص ذوي الانفس التامة) او (الانسانية) او ما يسميه (الفكر النقية) بقوله مثلا اقول كانها ارادت سفر فارتدت ذاته طائرة من مكان الى مكان فرمزت له بالنقلة وذلك اذا لم تقو الالة على ان تقبل اسباب الفكرة النقية(١٩) فالالة في هذا البيان ليست سوى الحواس او الحالة الشعورية واما الفكر النقية فلا يمكن الا ان تكون الطبقة اللاشعورية من العقل وحيث الرغبات الاصيلة البدائية ولهذا فان فرويد يقول اننا سنسمي هذه العلاقة الثابتة بين عنصر الحلم وترجمته بالعلاقة الرمزية اما عنصر الحلم نفسه فرمز للفكر اللاشعورية في الحلم(٢٠) .

الكندي يعلل الكشوف الروحية :

ويمكننا ان نعتبر الكندي سباقا ايضا في الكشف عن القوى الروحية التي اجهد علماء البحوث الروحية انفسهم على اثباتها بالامثلة العديدة او التجارب التي يجرونها في نواحي الاستشفاف او المكاشفات الباطنية او ما يطلق عليه التنبؤ بالغيب بواسطة الاحلام او الاستشفاف التنبؤي

(١٨) فرويد ـ محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي المحاضرة العاشرة ص١٥٨ .
(١٩) رسائل الكندي ص٣٠٤ .
(٢٠) فرويد ـ محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي المحاضرة العاشرة ص١٥٧ .

وذلك بقوله ان النفس لانها علامة يقظانة قد ترمز بالاشياء قبل كونها ان تنبي بها باعيانها فاذا كان الحي متهيئا لكمال القبول بالنقاء من الاعراض التي يفسد بها قبول قوى النفس وكانت قوية على اظهار آثارها في ذلك الحي ادت الاشياء اعيانها قبل كونها(٢١) . وقد بين فرويد ان الاحلام كان لها في العصور القديمة اهمية كبرى في التنبؤ عن المستقبل ومعرفة اسرار الغيب ولكن العلم الحديث بدأ يعرض عنها ويزدري بها اذ اعتبرها ضربا من ضروب الخرافات ومنوها بانها لا يمكن الا ان تكون مجرد عمليات جسمية او نوعا من التشنج يطرأ على ذهن

(٢١) رسائل الكندي ص٢٠٣ .

هو في حالة النوم(٢٢) ولكن البحوث الروحية بدات تكشف النقاب عن حالات كثيرة امكن بواسطة الاحلام التنبؤ عنها او استشفافها واجراء التجارب العديدة لاستحدائها .

والخلاصة ان الكندي الفيلسوف العربي الاول والاكبر قدم للانسانية كثيرا من الافكار الاصيلة التي جلى فيها على من سبقوه وستظل الاجيال القادمة تتأثر بأفكاره وتستفيد من مبتدعات عقله الكبير .

(٢٢) فرويد حياتي والتحليل النفسي ترجمة مصطفى زيور وعبدالمنعم المليجي ص ٥٠ – ٥١ .